

الرسالة التي أرسلتها إلى المفكر الماركسي والأستاذ الجامعي اللبناني عساف كفوري المقيم في مدينة بوسطن الأميركية بعد عودته من لبنان وفيها تنمة للنقاشات التي أجريناها معاً في لبنان - 2005:

صديقي العزيز عساف كفوري
كل عام وأنتم والعائلة بخير .

تلقيت رسالتك والمقال شكرًا. لكنني أود أن أسألك هل هذا المقال هو رد على ما ورد في حوار عبد الإله بلقزيز معي حول الماركسية؟ لا أعتقد. في أي حال أصارحك بأن المقال لم يزدني معرفة بظاهرة العولمة الراهنة، ولا بالدور الأميركي في صعوده وهبوطه. ذلك أنني قرأت وأقرأ الكثير مما كتب حول هذه الظاهرة. وشاركت في عدد من الندوات العربية حول محاولة فهمها وتحديد عناصرها. وفي اعتقادي فإن هذه الظاهرة بحاجة إلى المزيد من العمق في قراءتها. إلا أن الأساس في نظري في هذه القراءة ينبغي أن يأخذ في الاعتبار أن القرن الذي نحن فيه مختلف جوهريًا عن القرن الذي ودعناه في المفاهيم والقيم وفي الجديد مما تم إنجازه من الاكتشافات العلمية وفي الجديد الذي تعبر عنه الظاهرة الأبرز المتمثلة بوحدة العالم، بالإيجابي والسلبى اللذين يترافقان مع تكوينها. وهي كانت في أساس استشراق ماركس لمستقبل العالم عندما اعتبر أن الرأسمالية ماضية في توحيد العالم تحت سيطرتها تأمينًا لمصالحها. ودعا الطبقة العاملة لكي تتوحد في مواجهة هذه الرأسمالية من أجل تحقيق وحدة العالم على أسس إنسانية وفق ما نص عليه مشروعه الأساسي لتغيير العالم.

لا أريد أن أدخل في النقاش في هذه الرسالة حول الظواهر التي تبرز في عالم اليوم. وهي ظواهر لم تستكمل عناصرها ولا تتوفر الشروط التي تؤمن قدرتها على الثبات. لكن ما هو مؤكد، من وجهة نظري، أن مشروع التغيير وفق ما طرحه ماركس من حيث المبدأ لم يعد اليوم هو ذاته الذي ساد في القرن الماضي. والبديل المعاصر لمشروع التغيير أو مشاريع التغيير لم تظهر بعد المؤشرات الدالة عليه، البديل المفترض لمواجهة كل الظواهر التي نرى نماذج منها في الزمن الحالي ومنها بالأخص ظاهرة العولمة في السلبى والإيجابي فيها. ومهمة صياغة هذا البديل الجديد لمشروع تغيير العالم إنما تعود إلى أولئك الذين يرون أن التاريخ لم ينته وأنه لا ينتهي لا وفق مشروع ماركس ولا وفق أي مشروع آخر نقيض له من أي نوع. ولكن هذه المهمة هي بالغة التعقيد. ولا أعتقد أن العصر يحتمل انتظار ماركس جديد لكي يحققها رغم أن أفكار ماركس تظل حتى في الشروط الجديدة، موضوع استلهام للذين يفكرون في إعادة صياغة مشروع أو مشاريع التغيير المشار إليها.

أود في هذا السياق أن أذكرك بأن الحوار الذي قرأته في الكتاب هو حوار شفهي متعدد القضايا، ولا يقدم

بالتأكيد، بحكم طابعه، إجابات مكتملة أو شبه مكتملة من وجهة نظري، عن الأسئلة المطروحة في الحوار والمطروحة بشكل عام. أضيف إلى ذلك أنني أصدرت في عام 2003 كتابًا تحت عنوان "عشية أفول الامبراطورية". وبإمكانك إذا قرأته أن ترى فيه محاولة متواضعة لطرح أفكار يتناول قسم منها أوضاع بلداننا والأسباب التي أدت إلى نشوء هذه الأوضاع في ظل المتغيرات التي شهدتها القرن الماضي ويشهدها القرن الحالي. كما يتضمن محاولة لطرح أفكار تتناول ظاهرة العولمة، وتفاقم الدور الأميركي من موقع القطب الواحد بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وانهيار كامل للمشروع الاشتراكي. وفي هذه الأفكار إشارات عامة غير مدعمة إلى أن الامبراطورية الأميركية التي تهيمن على العالم في الوقت الراهن إنما تقع برغم هيمنتها هذه في الزمن الذي سمّيته عشية أفولها.

واسمح لي أن أصارحك بأن كثرة الحديث عن الهيمنة الأميركية وكثرة الدعوات من كل حذب وصبوب لمعاداة الامبريالية الأميركية، التي نقرأها ونسمعها في أيامنا هذه، تكاد تتجاهل الأسباب الأساسية لقدرة هذه الامبريالية الأميركية على تدخلها في شؤون بلداننا بما في ذلك التدخل العسكري كما حصل في العراق. والأساسي في هذه الأسباب، من وجهة نظري، هو الاستبداد الذي يهيمن على بلداننا ويتحكم بها فسادًا وقمعًا وتدميرًا ماديًا وروحيًا إلى الحد الذي أصبحت فيه احتمالات التغيير من الداخل شبه معدومة. الأمر الذي يبقي الميدان مفتوحًا على احتمال التدخل الخارجي باسم الديمقراطية أو بأسماء أخرى وذلك دفاعًا عن مصالح لا تمت بصلة إلى مصالح شعوبنا وبلداننا. ويتزافق ذلك مع بروز أصوليات إسلامية قادمة إلى بلداننا من كهوف التاريخ. وهذا الواقع بشقيه يثير المخاوف على مستقبل بلداننا لكثرة ما يحمله من مخاطر متعددة الأشكال. والمثل الراهن اليوم على ذلك بعد المثل العراقي هو ما يجري في لبنان بفعل الدور السوري التدميري لهذا البلد على امتداد ثلاثين عامًا، والخمسة عشر عامًا الأخيرة منها على وجه التحديد. وقد أحرزني ما قرأته اليوم حول قرار اتخذه 200 أديب مصري يتعلق بـ لبنان فيه الكثير من الخوف على سوريا وفيه انعدام لأي صيغة تتصل بالتضامن مع الشعب اللبناني في مواجهة مفاعيل الوصاية السورية ومفاعيل الدور الذي يمارسه حلفاؤها في لبنان، وبالأخص حزب الله، لتعطيل قيام الدولة وتعطيل إعادة بناء لبنان من جديد وعلى أسس جديدة.

أعتذر على هذه الإطالة في الحديث الصريح معك أيها الصديق العزيز. لكنها فشة خلق أرجو أن تتفهمها. مع تحياتي وعمق مودتي.

كريم مروة

بيروت في 2005/12/29